مدن لها إشعاع حضاري

إعداد: جمال أغزول

(المملكة المغربية)

لعبت المدن دورًا هامًا في رقي حياة الإنسان وتطوره، وهي مرآة تعكس مستواه الحضاري والفكري والمعيشي.. والمدن بحسب دلالاتها نَقَلة إلى حالة الرقي والحضارة والمدنية. وعند البحث في تاريخ الشعوب والحضارات نجد أن لكل حضارة منها مركز إشعاع لعبت فيه مدينة من المدن دورا مركزيا هاما كمنطلق أشعت منه الحضارة والثقافة نحو آفاق شاسعة لفائدة الإنسانية. وفي حضارتنا العربية الإسلامية نجد مدنا كان لها دور طلائعي في الإشعاع والإبداع الثقافي والحضاري والعلمي، فمن منا ينسى مدنا عربية ذات مجد عريق كبغداد والبصرة ودمشق وقرطبة والقيروان ومراكش وفاس.. ومن ينسى ما أسدته هذه المدن من أفضال على العالم في شتى العلوم والمعارف والتراث والقيم والأصالة العربية، لقد كانت هذه المدن العربية الإسلامية منارًا للعالمين وملجأ لطلبة العلم الذين يقصدونها من كل حدب وصوب، إذ كم أكل أقوام من ثمرات علومها واستناروا بحكمة علمائها واقتبسوا من خزائن نفائس كتبها، وكم أوَتْ من علماء الغرب الباحثين عن حرية الفكر بعدما لم يجدوا في أوطانهم غير الجهالة والخرافة ومحاكم التفتيش أيام القرون الوسطى المظلمة.

لقد أسهمت مدننا العربية التاريخية أيما إسهام في تنوير عقليات أمم وشعوب هي اليوم مدينةٌ لها بالشكر والاحترام. لو أنصف الغرب نفسه وأعاد ذاكرته إلى الوراء وتجرد من كبرياء فوقية حضارته وظفرتها الآنية.

أتناول في هذا المقال قصة تاريخ مدينة من مدننا العربية ذات الإشعاع الحضاري وظروف نشأتها وتأسيسها ومعالمها وشخصياتها لعلنا بهذا نكون قد أدينا جزءا يسيرا من واجب رد الاعتبار لهذه المراكز الحضارية حينما نُعرف بها.

البصرة

عندما تم تحرير العراق في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تطلبت الأوضاع الجديدة اتخاذ

مراكز تُقامُ فيها حاميات عسكرية لحماية حدود البلاد وضمان استتباب الأمن. وكانت جيوش العرب المسلمين قد دخلت العراق من جبهتين: جهة الفرات الأوسط من طريق الحيرة والأخرى من جهة الجنوب والتي اتخذت موقعا لها في مكان من طرف الصحراء لتتمكن بعدها من الانتشار في الجانب الغربي لشط العرب، وكان القائد العربي المسلم عتبة بن غزوان أول من أسس البصرة بعدما استأذن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتمصيرها، أي إنشاء مدينة في ذلك الموقع، فأذن له فنزلها وبنى مسجدها في رحبة بني هاشم كما أقام بيوتا للجند وكان هذا في سنة ١٤ للهجرة قبل الكوفة بستة أشهر. تميزت البصرة بكثرة نخلها وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من غرس النخل بها ثم غرس الناس بعده لحبهم واتباعهم لهذا الصحابي الجليل حبيب المصطفى ﷺ، وهكذا أثمرت هذه البذور وصار للبصرة ونخلها أجود وأحلى وأشهر التمور في الدنيا ببركة يدي الصديق رضي الله عنه وإلى يومنا هذا ما زالت البصرة ومنطقة جنوب العراق منتجة للتمور ومصدرة لها ويعتبر العراق أكبر منتج ومصدر للتمور في العالم بجميع أصنافه.

قام عتبة بن غزوان مؤسس البصرة ببناء الدور السكنية واتسعت هذه الدور وانتشرت بازدياد القادمين إليها، فوزعت الأراضي على الأهالي والعشائر البصرية قصد زراعتها والاستفادة منها، وكان من الأبنية الرئيسية فيها آنذاك الجامع ودار الإمارة والديوان، ولكل عشيرة من عشائرها ممثل يشرف على شؤونها ومصالحها ويدون السجلات بأسماء رجالها وعوالمها ويبلغهم بتشريعات الحكم ويوزع على الأهالي الفقراء والمحتاجين مساعدات مالية ومعونات مختلفة لسد حاجاتهم. كما حفرت في البصرة قنوات وترع وأنهار توصل المياه إليها من شط العرب. وجعل قرب البصرة من البحر (الخليج العربي) مركزا مهمًا للتجارة في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف. وأصبحت هذه المدينة من أجمل المدن إذ تغنى بها الشعراء فقيل في مدحها:

يا جنة فاقت الجنان فيما
يعد لها قيمة ولا ثمن

وقال هارون الرشيد عنها: "نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة."

والبصرة اليوم تتكون من عدد مقاطعات هي: البصرة، شط العرب، الهارثة، والزبير، قضاء القرنة، قضاء أبي الخصيب، الفاو، وتبلغ مساحة محافظة البصرة حوالي ثلاثة عشر ألف كيلومتر مربع وتبعد عن بغداد ٥٥٠ كم وعن البحر حوالي ٦٠ كم. وفيها حوالي ١٤ مليونًا من النخيل أي ضعف مجموع نخل العراق تقريبا وينتج عشرات الآلاف من الأطنان من التمور المختلفة الأنواع والألوان. كما تمتاز البصرة فضلا عن ثمارها، ما في باطن أرضها من نفط وثروات.. ومن المعالم الحضارية فيها جامعة البصرة بمختلف كُلياتها وأقسامها، والبصرة كونها مدينة عريقة فيها من الآثار: مسجد الإمام علي ابن أبي طالب كرَّم الله وجهه ومرقد الصحابي الفدائي الجليل طلحة رضي الله عنه، ومرقد ابن سيرين والحسن البصري والزبير.

وتُعرف البصرة بمدرسة النحو في القديم، وموئل الشعراء والأدباء والعلماء ومنهم الخليل أحمد الفراهيدي واضع عِلْم العروض، **ومازالت البصرة تمتاز بأصالتها العربية وكرم العرب وشيمهم الكريمة مهما امتد بها الزمن ومهما أَلَمَّتْ بِهَا المُلِمَّات.**